العدول الدلالي لصفات المرأة في القرآن الكريم

أ. فاطمة ولد حسين

جامعة بن يوسف بن خدة ـ الجزائر

نحا كثير من الألفاظ الدالة على المرأة ومرادفاتها وصفاتها في القرآن الكريم نحوا مجازيا، وبدا ذلك جليا في كتب التفسير التي اهتمت بفنون البلاغة والبيان على وجه الخصوص.

وبصرف النظر عن اختلاف العلماء في حقيقة ورود المجاز في القرآن الكريم من عدمه، فإن دراساتهم المستفيضة حول هذا الموضوع بينت مدى ثراء اللغة العربية واتساعها في استيعاب المعاني والدلالات المختلفة والتعبير عنها تعبيرا فنيا وجماليا يمتاز بالدقة والوضوح والتصريح مثلما يمتاز بالإشارة والكناية والتلميح . وكل ذلك لم يخرج عن معهود العرب في كلامها.

ومن المعلوم أن العلماء قد وقفوا عند ظاهرة المجاز في القرآن الكريم وألفوا فيها كتبا، رصدت أبعاد الظاهرة الدلالية وأساليب انتشارها وطرائق ورودها في كتاب الله العزيز للتعبير عن معاني مختلفة وقضايا شتى ، وموضوعات متنوعة لعل من بينها موضوع المرأة بوصفها كائنا محوريا دارت حوله كثير من الآيات والأحكام والتعابير القرآنية ، فقد ذكرت المرأة ومرادفاتها وصفاتها في مختلف الصيغ والتراكيب النحوية ، والدلالية والبلاغية وعبر عنها بما يدل عليها بوصفها أنثى.... كما تبين لنا ذلك في الحقل الخاص بصفات المرأة .

إذن فقد حضرت المرأة في القرآن الكريم "من خلال مجموعة من الألفاظ والمصطلحات الدالة عليها، من جهة، ومن خلال نسق المفاهيم التي ترتبط بموضوعاتها من جهة أخرى، وفضلا عن ذلك نستطيع تمييز سور بأكملها خصص حيزا مهما منها لمعالجة قضايا المرأة...؟ (1).

وقد بينت الإحصاءات أن أكبر حضور للمرأة وصفاتها يمكن معاينته بالأرقام من خلال الألفاظ الدالة عليها مثل:"النساء والمرأة والأم والأنثى والوالدة والزوج والأهل والخليلة والصاحبة والأخت والبنت"(2). ويلاحظ أن القرآن الكريم احتفى بذكر المرأة والحديث عنها ووصفها وعبر على لسانها وأشار إلى العلاقة التي تربطها بالرجل فجاءت في كثير من الآيات ملازمة له ،مما يدل على طبيعة العلاقة التلازمية بينهما في الخلق والمنشأ وانسعي في الحياة وحمل المسؤوليات وتقاسم أعباء الحياة، والخضوع لمعايير موحدة في الثواب والعقاب.

---

(1)المرأة في القرآن الكريم:إحصاءات ودلالات ، موقع الانترنت ,(www.osrah.net).

– أنظر:عصمت الدين كركر حرم اهيلة: الشركة التونسية للتوزيع، 1985، ص 37 و ما بعد.

(2)المرجع نفسه.

وقد اتخذ القرآن الكريم في التعبير عن كل تلك الصفات والحالات والنوازع أسلوب المجاز في أحيان كثيرة وعدل عن ذكر التعبير بالحقيقة، لبعد دلالي أو غاية بلاغية جمالية.

إن أساليب العدول عن الأصل الوضعي والانتقال باللفظ من دلالته الحقيقية إلى دلالة مجازية، ظاهرة لغوية بارزة في القرآن الكريم رغم اختلاف العلماء في حقيقة المجاز العقائدية والفكرية.

المجاز:

المجاز نوعان : مجاز لغوي ومجاز مرسل، وقد عرف الأول بأنه " المستفيد فهمه عن طريق اللغة وأهل اللسان بما يتبادر إليه الذهن العربي عن الإطلاق في نقل اللفظ من معناه الأولي إلى معنى ثانوي جديد "(1) كما عرف الثاني أي المجاز العقلي بأنه " المستفيد فهمه عن طريق العقل " (2).

وكما يبدو فإن المعنى الاصطلاحي لحقيقة المجاز إنما هو مستمد من الأصل اللغوي للجذر "جوز"، فقد جاء في اللسان: "جزت الطريق، وجاز الموضع جوازا أو مجازا سار فيه وسلكه، وجاوزت الموضع بمعنى جزته، والمجاز والمجازة الموضع"(3).

وقد عبر "عبد القاهر الجرجاني" عن المدلول الاصطلاحي للفظ "مجاز" وربطه بمدلوله اللغوي، فهو عنده من مجاز الشيء يجوزه إذا تعداه، وإذا عدل باللفظ عما توجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز به هو مكان الذي وضع به أولا."(4).

---

(1) محمد حسين الصغير : مجاز القرآن وخصائصه الفنية و بلاغته العربية ،ص79(كتاب مصور إلكترونيا)

(2)المرجع نفسه،ص 79.

(3)ابن منظور: لسان العرب ،مادة "حوز".

(4) عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي ، ط2 ، المكتبة العصرية ،بيروت 2001 م، ص365.

ولا يكتفي "عبد القاهر" بمجرد تبيان العلاقة بين الدلالتين اللغوية والاصطلاحية للفظ المجاز، وإنما يحاول أن يبين كيف تتحدد العلاقة بين الأصل والفرع في عملية العدول عن أصل اللغة أو النقل الذي يثبت إرادة المجاز لهذا اللفظ أو ذاك دون الاستعمال الحقيقي له(1) ،فيقول: " تم اعلم بعد، إن في إطلاق المجاز عن اللفظ المنقول عن أصله شرطا وهو أن الاسم يقع لما تقول إنه مجاز فيه بسبب بينه وبين الذي تجعله فيه ."(2).

وإذا كان المجاز اللغوي الذي ينشأ بسبب المشابهة من مباحث الأصوليين، فإن المجاز الفعلي يكون بسبب الملابسة وهو من اختصاص أهل اللغة.يقول "الزركشي" وهو عالم يقر بوجود المجاز في القرآن الكريم إنه " لو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوه من التوكيد والحذف، وتثنية القصص وغيره، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن."(3).

والمجاز عنده نوعان ،وله سببان: أحدهما الشبه، ويسمى المجاز اللغوي، وهو الذي يتكلم فيه الأصولي، والثاني الملابسة ، وهو الذي يتكلم فيه أهل اللسان، ويسمى المجاز العقلي، وهو أن تسند الكلمة إلى غير ما هي له أصالة بضرب من التأويل"(4).

وعنده أن المجاز يجري في اللفظة كما يجري في الجملة والعبارة :

فالذي يجري في الكلمة وعبر عنه بالمجاز "المفرد" وهو المجاز اللغوي.

وأما الذي يجري في التركيب وسماه مجازا مركبا فهو المجاز العقلي.

وأقر "الزركشي" بأن المجاز منتشر في القرآن الكريم وأن المجاز الإفرادي كثير في كتاب الله العزيز بحيث يعجز العد عن إحصائه(5).

---

(1) محمد حسين الصغير : مجاز القرآن وخصائصه الفنية و بلاغته العربية ،ص57.

(2) عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي ،ص365.

(3) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ـ المكتبة العصرية بيروت ،ج2،ص255.

(4) المرجع نفسه،ج2،ص256.

(5)المرجع نفسه،ج2،ص258.

وقدم له ستة وعشرين وجها(1)، يهمنا منها هنا ما يتعلق بالمرأة وصفاتها وأساليب التعبير عنها مجازيا وذلك بممارسة ضرب من الاستعمال اللغوي الذي ينحرف فيه الخطاب عن دلالة اللفظ الحقيقية إلى دلالة مجازية، كما في قوله تعالى يصف القيامة: {يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته و بنيه}(2).

فقد عدل عن لفظ الزوج إلى الصاحبة، وهذا عدول له ما يبرره كما يقول أحد الدارسين، لأن لفظ الصاحبة "أكثر الألفاظ دلالة على الملازمة بين الزوجين، لذلك كانت الصحبة أبلغ من الاجتماع لأنها تقتضي طولا في مدة الملازمة أكثر ما يقتضيه الاجتماع".(3).

كما يظهر هذا الأسلوب المجازي في مثل قوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا}.(4) فقد "ذكر لفظة (ويذرون أزواجا) رغم أنها ليست زوجة بعد وفاة الزوج لأنها لو كانت زوجة لحرم عليها التزوج بعد موت الزوج، ولو زوجت لكانت جمعت بين زوجين ، ولكن الآية آثرت لفظ "أزواجا" لحث هذه المرأة على التربص للعدة أربعة أشهر وعشرا؛ فإنها كان منذ وقت قصير زوجة لذلك الميت، فلا يحق لها أن تنسى ذلك وتتزوج قبل مضي العدة، فلفظ "أزواجا" تذكير للمرأة بزوجها السابق حتى لا تتعجل وتترك حقه في العدة والحداد عليه. وهذه هي الدلالة البعيدة التي يخلقها أسلوب المجاز، وما كان لنا أن نسبر غور هذه الدلالة ونقف على هذا المعنى لو نظرنا إلى المدلول الحقيقي للفظة "أزواجا"، أو حاولنا استحضار اللفظ الغائب المعدول عنه يذرون نساء أو أرامل. هذا ما ينجم عن استعمال المجاز في جانبه اللغوي الاستعاري لأن الصاحبة في الآية الأولى كأنما استعيرت للزوجة، والأزواج في الآية الثانية كأنما استعيرت للنساء المرملات.

---

(1) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ، ص258-299.

(2) سورة عبس، الآية 36

(3)المرأة في القرآن الكريم-إحصاءات ودلالات ". موقع الانترنت (www.osrah.net)

(4)سورة البقرة، الآية 234

وفي جميع الأحول هنالك تجاوز في استعمال اللفظة وذلك يجعلها تؤدي دلالة غير دلالتها الحقيقية بدلا من لفظة أخرى، ذلك لأن المجاز -وهوقسمان لغوي وعقلي- إنما يقوم على تجاوز ما هو حقيقي ومألوف ومتداول بل ومتفق عليه، ويكون ذلك باستعمال أساليب تعبير بلاغية لعل أبرزها الاستعارة والكناية؛ والانزياح اللغوي والتركيبي والصوتي وغير ذلك من الأساليب التعبير، التي يغلب عليها طابع الإشارة والتلميح، ويبتعد بها عن التقرير والتصريح، فيخرج بذلك إلى أوجه من الدلالات الجديدة التي لم تكن مستفادة من تلك الألفاظ والتراكيب في وضعها الأصلي.

التغليب:

ونسوق هنا هذا المثال الذي يلحظ فيه طابع التغليب أي تغليب جنس على جنس كما في وصف مريم ابنة عمران حين قال {وكانت من القانتين } (1).

فالملاحظ أنه " غلب عليها صفة الذكر؛ و لم يرد المعنى المجازي في ذلك لجاء بالأصل الموضوع للإناث وهو القانتات، ولكنه أطلق القانتين على الإناث من باب التغليب والارتفاع بمستوى مريم إلى مصاف الرجال القانتين..." (2) كما يقول البلاغيون.

والأسلوب نفسه استعمل في وصف امرأة لوط: { إلا امرأته كانت من الغابرين} .(3).

فإن لفظة "الغابرين" موضوع للدلالة على الذكور المتصفين بهذا الوصف ،وإطلاقه على الإناث على غير ما وضع له، وإذا كان كذلك فهو مجاز" (4)

ومثل هذا الأسلوب المجازي كثير في القرآن الكريم. قال "الزركشي" في تعليقه على قوله تعالى: { أن تظل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى} (5) إنما جعلت المرأتان للتذكير إذا وقع الضلال لا ليقع الضلال فلما كان الضلال سببا للتذكير أقيم مقامه"(6).

---

(1) سورة التحريم، الآية 12

(2) محمد حسين الصغير : مجاز القرآن وخصائصه الفنية و بلاغته العربية ،ص52.

(3) سورة الأعراف، الآية 83.

(4) المرجع السابق ،ص152

(5)سورة البقرة، الآية 282

(6) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص261.

المجاز المرسل:

جاء في قوله تعالي: { فتحرير رقبة مؤمنة } (1)، فالمقصود هو الرجل المؤمن أو العبد المؤمن. "ولما كانت الرقبة جزءا من هذا الكل، وكان الاستعمال جاريا على هذه السنن في القرآن وعند العرب، وذلك بدلالة الرقبة على التسمية، كان ذلك مجازا لهذه العلاقة."(2).

هذا النوع من المجاز الدلالي هو ما يعبر عنه بالمجاز المرسل الذي تكون علاقته جزائية أي إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ فقد جوز بالرقبة عن النفس الإنسانية جسدا وروحا والممثلة في الرجل المؤمن.

وأما في قوله تعالى: { حتى تنكح زوجا غيره}(3).

وكثيرا ما يستشهد علماء البلاغة على هذا الأسلوب المجازي بقوله تعالى { إني أراني أعصر خمرا } (4) فلفظة "خمر" هنا لا تدل على الخمر بالذات، وإنما تدل على العنب " لأنه آيل إلى الخمرية" ومع ذلك فهنالك أقوال مختلفة في تخريج هذا النوع من المجاز (5).

إن هذا الضرب من أساليب التعبير المجازي هو ما اصطلح عليه البلاغيون بالمجاز المرسل، وحددوا له مجموعة من العلاقات منها العلاقة السببية والمسببية والجزئية والكلية واعتبار ما كان واعتبر ما يكون والمحلية والحالية والآلية وعلاقة المجاورة' (6).

وحاول تتبع بعض هذه الأساليب في مجال صفات المرأة ومردفاتها في القرآن الكريم في حدود ما تسمح به الصور والنماذج التي يقدمها كتاب الله العزيز.

تسمية الشيء بما كان عليه:

ففيما يتعلق بانتقال الدلالة وفق أسلوب تسمية الشيء بما كان عليه؛ نقرأ قوله تعالى:" { ولكم نصف ما ترك أزواجكم} (7).و الحقيقة أن الأزواج إذا متن لم يكن أزواجا، وسمين بذلك لأنهن كن أزواجا" (8).

---

(1) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج3،ص279

(2) الدكتور عبد العزيز عتيق –علم البيان– في البلاغة العربية ط1 ، دار النهضة العربية بيروت 1974 ، ص162.

(3) سورة يوسف: آية 30

(4) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2، ص279.

(5)المرجع نفسه،ص279.

(6) الدكتور عبد العزيز عتيق –علم البيان– في البلاغة العربية ط1 ، ص158-165

(7) سورة النساء: آية 12

(8) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص280.

والأسلوب نفسه يتجلى في قول الله عز وجلّ:" { فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن } (1)بمعنى " الذين كانوا أزواجهن، وكذلك قوله { ويذرون أزواجا } لانقطاع الزوجية بالموت(2).

إطلاق اسم المحل والمراد به الحال:

وأما خروج المجاز الذي علاقته المحلية أي إطلاق اسم المحل وإرادة الحال كقوله تعالى: { وفرش مرفوعة} (3).قال "الزركشي": أي نساؤه بدليل قوله تعالى : { إنا أنشأناهن إنشاء}.(4)

قال: ومثل هذا " كالتعبير باليد عن القدرة في قوله: { بيده الملك} (5)ونحوه والتعبير بالقلب عن الفعل كقوله: { فهم قلوب لا يفقهون بها } (6) أي عقول.(7)

وأما العدول في الأفعال فمثل قوله تعالى: { فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن } (8) لأن الإمساك لا يكون بعد انقضاء العدة، فيكون بلوغ الجل تمامه.(9)

ومثله قوله تعالى : { فإذا بلغن أجلهن فلا تعضلوهن} (10)بمعنى أنهن " أتممن العدة وأردن مراجعة الأزواج "(11).

قال "الزركشي":" ولو كانت مقاربته لم يكن للولي حكم في إزالة الرجعة، لأنها بيد الزوج ولو كان الطلاق غير رجعي لم يكن للولي أيضا حكم قبل تمام العدة، ولا تسمى عاضلا حتى يمنعها تمام العدةفي المراجعة.(12)

---

(1) سورة البقرة، آية 234

(2) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص280

(3) سورة الواقعة، آية 34

(4) المرجع نفسه، آية 35

(5) سورة الملك، آية 1

(6) سورة الأعراف، آية 179

(7) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص281

(8) سورة الطلاق، آية 2

(9) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص292

(10) سورة البقرة، آية 232

(11) المرجع السابق ،ج2،ص293

(12) المرجع نفسه ،ج2،ص293

إن هذا الأسلوب في صوغ المعاني يشكل عدولا عن الحقيقة لأن إطلاق الفعل في الآيتين السابقتين لا يعبر عن حقيقة الحدث، وإنما يقترب من دلالة الحدث ويشارفه، وهذا ضرب من العدول والانزياح الذي يخرج عن الدلالة الحقيقية إلى دلالة مجازية تفهم من التركيب وتستنبط بالعقل.

وهنالك أسلوب مشابه لهذا الأسلوب، وهو إطلاق الفعل وإرادة أرادته كقوله تعالى: { إذا طلقتهم النساء} (1)ومعناه إذا أردتم. قال صاحب البرهان:" وإن عبر عن إرادة الفعل بالفعل، لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل وإرادته، وقصده إليه، كما عبر بالفعل عن القدرة على الفعل في قولهم: الإنسان لا يطير والأعمى لا يبصر، أي لا يقدر على الطيران والإبصار، وإنما حمل على ذلك دون الحمل على ظاهره للدلالة على جواز الصلاة بوضوء واحد، والحمل على الظاهر يوجب أن من جلس يتوضأ، ثم قام إلى الصلاة يلزمه وضوء آخر فلا يزال مشغولا بالوضوء ولا يتفرغ للصلاة، وفساده بين".(2)

وإنما أثبت قول "الزركشي" لأن فيه تفسيرا وتأويلا لمعنى الآية ودلالة إطلاق الفعل وإرادة إرادته . والآية هي قوله تعالى: {إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا... } (3)

إن علاقة مشارفة وقوع الفعل ومقابلته وإرادته تجمع في الآية الكريمة: { وإذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف} (4)ومعناه: إذا طلقتم النساء فقاربن بلوغ الأجل فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن؛ فهذا مجاز مرسل علاقته إطلاق الفعل وإرادة إرادته في " طلقتم النساء" وإطلاقه إرادة مقاربته ومشارفته في قوله تعالى{ فبلغن أجلهن } .ولعل سر جمال هذا الأسلوب، فضلا عن عدوله الدلالي بسبب خروجه عن المجاز، هو الإيجاز فبدلا من أن يقول:" وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن " حدث إيجاز حذف.وهو نوع من البلاغة مستحسن.

---

(1)سورة الطلاق، آية 1

(2)الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، ج2، ص296

(3)سورة المائدة، آية 6

(4)سورة البقرة، آية 231

والمتتبع لأساليب العدول في القرآن الكريم لا يمكنه أن يقف فيه عند حد لاضرادها وانتشارها، ولكن الملاحظ أن العدول في القرآن الكريم لا يكون إلا لغرض بياني أو بلاغي ولا يكون إلا بمراعاة طبيعة المقام وملابسات سياق الآية ومضمونها.

وعليه فإن دلالة المجاز التي حدثت في ألفاظ المرأة وصفاتها في القرآن الكريم تقتضي منا إمعان نظر وتتطلب دقة ملاحظة ومعرفة واسعة بأساليب العربية ومقصود العرب في كلامهم، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين كما صرح هو بذلك.

وإذا كان علماء البلاغة والبيان والتفسير قد توقفوا عند كثير من الآيات التي تحدثت عن المرأة وأساليب ورودها في القرآن الكريم، وإنهم ذكروا كثيرا من هذه الأساليب ولكن دون أن يجمعوها في حقل دلالي واحد يعنى فيه الباحث بالصيغ التركيبية و اللغوية والدلالية التي يكون لفظ المرأة العنصر الاساس في تلك الصيغة؛ ذلك لأن البحث في دلالة العدول وأبعادها البلاغية والجمالية والتفسيرية إنما يتوصل إليها بدراسة البنية وصيغها التركيبية، ومن ثم يصبح البحث عن الدلالات الجديدة للفظ أو العبارة أكثر حرية، فلا يتقيد الباحث بالمعطيات المنجزة وإنما يتخذ منها منطلقا للبحث بهدف الوصول على تحقيق منجزات إضافية، وذلك بتتبع تحولات أساليب المجاز وغير المجاز، إذ إن الدلالات الحديثة لا تنشأ عن المجاز وحده، فهناك الكثير من أساليب التعبير التي تمنح اللفظة أو العبارة معاني ثانوية أو دلالات إضافية يفطن لها القارئ أو المتلقي في لحظة انفعال معينة أو في حالة من الحالات التي تعتري النفس بسبب ما تكتنزه العبارة من عميق الإحساس ورقة الشعور، وما تثيره من ظلال وإيحاءات تكون سبب في جعل الذهن يفطن إلى الدلالات الخفية التي لا تصرح بها العبارة في الظاهر، فيكون الإيحاء والتلميح أبلغ وأعمق وأدل.

وقبل أن ننتقل إلى أكثر الأساليب عناية بالمرأة في القرآن الكريم أقول : إن كل تجوز إنما ينجم عنه انتقال في دلالة اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى جديد لا يفقده أصليته تماما؛ وذلك هو فعل المجاز الدلالي "الذي يعنى بتقليب وجوه اللفظ الواحد لا في الأشباه والنظائر بل في المعاني الثانوية، فينتقل باللفظ من وضعه الأصلي المحدد له مركزيا إلى وضع جديد طارئ عليه، تحدده العلاقات الفنية، وهذا من أهم الخصائص التي يمتاز بها المجاز، ويؤهله للتوسيع في اللغة، وذلك بإضافة المعاني الجديدة إلى نفس اللغة بنفس الألفاظ المرتبطة بأصول بلاغية لا تخرجها عن دلالتها الأولى في جذورها اللغوية في أصل الوضع، بل تضيف لها توسعا بزيادة المعاني الثانوية هذه.

ولا تكون هذه الإزادة إلا بمناسبة، ولا المعاني مستحدثة إلا بقرينة، وبذلك يتحدد الاستعمال المجازي وتحدد دلالته أيضا بضوابط أساسية تدفع عنه التيه والارتجال، وتحفظه من الإغراب والابتعاد عن الذائقة الفطرية عند المتلقي..."(1)

الكناية:

وأما أكثر الأساليب تعبيرا عن المرأة في القرآن الكريم، فضلا عن المجاز، فهو الكناية، وإن كان بعض العلماء يعد الكناية ضربا من ضروب المجاز وفنا من فنونه.

نقل "الزركشي" قول (الطرطوسي) في العمدة" لقد اختلف في وجود الكناية في القرآن الكريم، وهو كخلاف المجاز؛ فمن أجاز وجود المجاز فيه أجاز وجود الكناية، وهو قول الجمهور ومن أنكر ذلك أنكر هذا."(2)

قال "الزركشي":" أعلم أن العرب تعد الكناية من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التصريح... وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكناية..."(3)

وجاء في تعريف الكناية عند أهل البيان:" أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه، ويجعله دليلا عليه فيدق على المراد من طريق أولى؛ مثاله قولهم " طويل النجاد " و" كثير الرماد" يعنون طويل القامة كثير الضيافة، فلم يذكروا المراد بلفظه الخاص، ولكن توصلوا إليه بذكر معنى آخر وهو رديفه في الوجود، لأن القامة إذا طالت طالت النجاد، وإذا كثر القرى كثر الرماد".(4)

و مما حفظناه من كتب البلاغة أن الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى وهي مأخوذة من كنيت الشيء إذا سترته. وفي اللسان: "الكنى جمع كنية من قولك" كنيت عن الأمر وكنوت عنه إذا وريت عنه غيره."(5)

---

(1) محمد حسين الصغير : نحو القرآن وخصائصه اللغوية وبلاغته العربية ،ص87

(2) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، ،ج2،ص301

(3)المرجع نفسه ،ج2،ص300

(4)المرجع نفسه ،ص301

(5) ابن منظور : لسان العرب ،مادة"كنى".

والكنية كما يقول في النسان على ثلاثة أوجه: أحدهما أن يكنى عن الشيء الذي يستفحش ذكره، والثاني أن يكنى عن الرجل باسم توقيرا وتعظيما، والثالث أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف صاحبها
بها كما يعرف باسمه، كأبي لهب اسمه عبد العزى، عرف بكنيته فسماه الله بها"(1)
وتنقسم الكناية عند البلاغيين إلى ثلاثة أقسام:

- كناية عن صفة: " وهي التي يطلب بها نفس الصفة ،والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية كالجود والكرم والشجاعة وأمثالها لا النعت."(2)
-
- كناية عن موصوف:" وهي التي يطلب بها نفس الموصوف، والشرط هنا أن تكون الكناية مختصة بالمكنى عنه لا تتعداه، وذلك ليحصل الانتقال منها إليه."(3)
- كناية عن نسبة: ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه أو بعبارة أخرى يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف."(4)

ومن مزايا الكناية أنها "الأسلوب الوحيد الذي يستطيع به المرء أن يتجنب التصريح بالألفاظ الجنسية أو الكلام الحرام."(5)

---

(1)ابن منظور : لسان العرب ،مادة:كنى".
(2) الدكتور عبد العزيز عتيق :علم البيان في البلاغة العربية ،ص210
(3)المرجع نفسه،ص211.
(4) المرجع نفسه،ص215.
(5)المرجع نفسه،ص224.

ولعل القرآن الكريم قد حفل بالكناية خاصة في حديثه عن المرأة، لذلك وردت كثير من المعاني الدالة على المرأة في حركتها وسكونها وعلاقتها بالرجل وبأهلها وبالمجتمع عامة ، وردت في صيغ كنائية؛ فالمرأة هي النعجة وهي البيضة وهي اللؤلؤ المكنون، وهي الصاحبة وهي ذات الحمل وهي حمالة الحطب وهي الحرث وهي اللباس وهي محصنة الفرج، وإلخ...

وفي ما يلي مقاربة لهذه الصورة الكنائية التي ارتفعت بالمرأة وسمت بها عما يخدش كرامتها أو يجعلها عرضة للإهانة والابتذال ،وهذا ما ينبغي أن تكشفه لنا الانزياحات اللغوية التي يقدمها لنا أسلوب الكناية بوصفه أسلوبا متأنقا يكتفي بالإشارة والتلميح ويومئ إلى المعنى دون أن يصرح به.

وحتى فيما يتعلق بخطاب الرجل للمرأة يتدخل القرآن الكريم ليعلمه كيف يسمو بمخاطبته المرأة فيعمد إلى التعريض والكناية، قال تعالى:" ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم."(1) ولا شك أن مثل هذا الخطاب له سياقه الخاص ولكن في كل الأحوال يستفاد منه دلالة التلطف والإحسان إلى المرأة.

وقد تحدث "الزركشي" في البرهان عن أسباب الكناية في القرآن الكريم عامة وحصرها في عشرة أسباب أو أوجه أو وظائف أو أغراض. والذي يهمنا منها ما تناول المرأة وصفاتها، ومن ذلك قوله تعالى: { إن هذا أخي له تسعة وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب} (2)

---

(1)سورة البقرة آية 235

(2)سورة ص: آية 23

فقد ترك اللفظ "المرأة" لما هو أجمل منه... فكنى بالنعجة عن امرأة، وكان من عادة العرب أنها تكني بها عن المرأة.(1)

ويقول العلماء إن من أسباب الكناية في القرآن أن يذكر بالكناية ما يفحش ذكره في السمع. فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع؛ ومن ذلك أنه كنى عن الجماع بالسر في قوله تعالى: { ولكن لا تواعدوهن سرا} (2)وكذلك في قوله تعالى: { فالآن باشروهن } (3) فكنى عن الجماع بالمباشرة لما فيه من التقاء البشرتين.. وكذلك أيضا قوله تعالى: { أو لامستم النساء} (4) بدلا من الجماع إذ لا يخلو الجماع من ملامسته.(5)

قال في البرهان:" ومن عادة القرآن الكريم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث، والدخول والنكاح، ونحوهن"(6) ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: { هن لباس لكم وأنتم لباس لهن } (7)؛ هنا تفقد الكناية مفهومها الاصطلاحي كما حدده البلاغيون واختلفوا فيه لكونها - أي الكناية- أسلوبا تعبيريا وتصوريا يتنازعه كل من المجاز والاستعارة كذلك.

فقد قال "ابن الأثير":" أما الكناية فإنها جزء من الاستعارة ولا تأتي إلا على حكم الاستعارة خاصة، لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له، أي التشبيه وكذلك الكناية. فإنها لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكنى عنه أي لازم المعنى."(8)

---

(1) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، ج2،ص302

(2) سورة البقرة آية 235

(3) المرجع نفسه آية 187

(4) سورة النساء آية 43

(5) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص303

(6) المرجع نفسه،ص303

(7) سورة البقرة آية 187

(8) الدكتور عبد العزيز عتيق :علم البيان في البلاغة العربية ،ص219

تقاطع الكناية مع المجاز:

وفي تقاطع الكناية مع المجاز يقول "ابن الأثير" في حدها "' أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز... نحو قوله تعالى:' { هذا أخي له تسعة وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة } فقد كنى بذلك عن النساء، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث، فالمعنى هنا يجوز حمله على الحقيقة، كما يجوز حمله على المجاز"(1)

سقت مفهوم "ابن الأثير" للكناية بوصفها أسلوبا يتقاطع مع المجاز لأن الدلالة الأصلية في الآية السابقة: { هن لباس لكم وأنتم لباس لهن } مفقودة ؛أي أننا نعدم القدرة على استحضار المعنى الظاهر المتلفظ به أي انتفاء جواز المعنى الأصلي، وهذا مخالف لمفهوم الكناية الاصطلاحي الذي يقر جواز إرادة المعنى الحقيقي كما في قولهم " فلان كثير الرماد" فقد تدل كثرة الرماد على الكرم والجود ،وقد يفهم من كثرة الرماد أنه كذلك فعلا دون تأويل للفظ المطلق...

وإذن فإن الدلالة التي ينبغي استنباطها من الآية السابقة ينبغي أن يتجاوز مجرد الكناية عن الجماع إلى أحوال ومشاعر وأحاسيس و وجدانات يتبادلها الأزواج من اطمئنان وراحة وسكينة، ومودة وأشياء أخرى مخفية مستترة اختزلتها الآية { هن لباس لكم وانتم لباس لهن} ،فهل لنا أن نتصور رجلا يلبس امرأته أو امرأة تلبس زوجها إلا أن يكون ذلك تمام الاتحاد والانصهار والسكينة التي جعلها الله بين الأزواج الصالحات توأم الروح والنفس...قال الله تعالى:

{ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (2) قال الدكتور "محمد المهدي" معلقا على الآية: { هن لباس لكم وأنتم لباس لهن} فهذا الوصف اللطيف الرقيق يحيط بمعاني التداخل مع الاستقلال مع التساوي مع الاحتواء مع الحفظ والرعاية مع القرب مع المودة مع الستر."(3)

---

(1)سورة الروم، آية 21

(2)موقع واحة النفس المطمئنة.www.elazayem.com

(3) المرجع نفسه،ص210

ومن لطيف الكنايات عن النساء لغرض دلالي عدل بموجب عن التصريح بالحقيقة إلى الكناية عنها قوله تعالى: { نساؤكم حرث لكم فأوتوا حرثكم أنى شئتم } (1)

فقد شبه المرأة بالأرض والجامع بين الطرفين الإخصاب في كل منهما؛ ولا يكون الإخصاب إلا بحرث وبذر... و الحرث عملية شاملة لا تتم إلا بتفاعل طرفي المعادلة في تجسيد تلك العلاقة التواصلية التي تتحول إلى سكينة وعطاء ولباس كما عبرت عنه الآية سابقا.

وعليه فإن لفظة حرث في الآية الكريمة تحمل من الدلالات الإيحائية ما يتجاوز بكثير تلك العلاقة الجنسية العابرة والآنية التي لا تضع نصب عينها كونها علاقة للإخصاب والنماء وإعمار الأرض. وفي هذا إشارة إلى وجوب احترام العلاقة الشرعية بين الزوجين والعمل على جعلها تؤدي الوظيفة المنوطة بها...

وهذه العلاقة الحميمة بين الزوجين هي التي تحاول الكنايات تشخيصها وتوضيحها والتلميح إليها بهدف إعطائها تلك القيمة القدسية التي لا تقوم الحياة بغيرها.

ولذلك نرى القرآن الكريم يحثنا على الاقتراب من المرأة اقترابا يقوم على المحبة والاحترام والمعاشرة الطيبة، و يوصينا بالنساء خيرا كما قال الرسول الكريم (صلعم)، وذلك لما لهذا الكائن الرقيق من مكانة في حياة الأسرة والمجتمع والأمة، ولما له من دور مؤثر في حياة الرجل.

وقد صورت الكناية هذا الكائن بأجمل الصور إغراءا للرجل وتحبيبا له في المرأة؛ وحتى الصور الكنائية التي تحدثت عن نساء الآخرة لم يخرج عن صور نساء أهل الدنيا إلا في بعض التفاصيل. كما في وصف الحور العين بأنهن قاطرات الطرف، قال تعالى: { فيهن قاطرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان } (2).

---

(1)سورة البقرة آية 233

(2)سورة الرحمن آية 56

والمعنى قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم، وقوله: لم يطمثهن: أي لم يمسهن ولم يطأهن إنس قبلهم ولا جان. والعدول في الآية واضح في لفظ " قاصرات الطرف" وهي الصفة التي امتازت بها الحور العين؛ والدلالة المستفادة من هذه الصورة الكنائية هي أن القرآن الكريم يريد أن يسمو بالرجل والمرأة معا إلى المثال المنتظر في الحياة الأخرى.

وقد وصف القرآن الكريم نساء الجنة بأوصاف نساء الدنيا كما بدا ذلك في لفظ "أبكارا" في الآية:

{ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا} (1) وهذه اللفظة بعينها وصفت بها الحور العين؛ قال الله تعالى: { إنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكارا عربا أترابا } (2) قال المفسرون: أي إنا أنشأناهن نشأة أهل الجنة غير النشأة التي كانت في الدنيا، فجعلناهن أبكارا صغارهن وكبارهن، قالوا: وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا. ومعنى كلمة "عروب" في "عربا"، هي المرأة المتحببة إلى بعلها وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها؛ و معنى "الأتراب" أي في سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية أكمل الشباب. وقالوا في استنباط دلالات الآية وتأويلها: أي ابتدأناهن ابتداءا جديدا من غير ولادة إبداء وإعادة.(3).

وإذا تأملنا الألفاظ المكونة لهذه الآية التي احتزلت الكناية جميع دلالاتها وإيحاءاتها، وذلك بالرجوع إلى كتب التفاسير وجدنا لها أكثر من دلالة واحدة ،منها ما يرتبط بالوضع ومنها ما ينحرف عن دلالته الوضعية ليكتسب دلالات إضافية مستنبطة بالتأويل ومنها لفظ "عربا" في الآية، فهي تحتمل خمسة معان كما يذهب لذلك المفسرون:

أحدهما: أنهن المتحببات إلى أزواجهن.

الثاني: أنهن العواتق.

الثالث: الحسنة التبعل.

الرابع: الغنجات.

الخامس: الحسنة الكلام.(4).

---

(1) سورة التحريم آية 1

(2)سورة الواقعة من الآية 35 إلى الآية 37

(3) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي : تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل و أسرار التأويل ج2،ص460

(4) الإمام أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دمشق دون تاريخ ،ج8،ص142

إن القرآن الكريم تعامل مع المرأة بمنتهى التلطف والرقة في كثير من المقامات والمواضع، فأطلق عليها جميل الصفات والنعوت وسما بها روحا وجسدا؛ ولكنه في مواضع ومقامات أخرى اتخذ منها موقفا فيه زجر ووعيد، ونهي وتحذير وأمر بالعقاب.

وتحت الكناية القرآنية المرأة على العفة والتطهير متمما حثتها على التحصن وغض النظر. ونستحضر هنا تلك الفتاة الخيية ابنة النبي شعيب فقد صورها القرآن في أجمل صورة تمثل الاحتشام خلافا لتلك التي تضرب برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها.قال تعالى: "فجاءته إحداهما تمشي على استحياء.." (1) قد سترت وجهها بكم درعها(2) وهي مقبلة على النبي موسى تعلوها العفة والاحتشام.وجاءت عبارة "تمشي على استحياء" لتفسح المجال أمام خيال المتلقي لكي يتصور هذه الفتاة في مشيتها كيفما يشاء، وهي قادمة في لباس العفة يغطيها الحياء، فيزيدها جمالا وبهاء، ويضفي عليها هالة من جمال الأنوثة الساحر. كما تحث الكناية القرآنية المرأة على التعفف والطهر وذلك حين يذكرها بما ينتظرها من المغفرة وعظيم الأجر إن هي تحلت بجملة من الصفات المثالية التي يسردها القرآن الكريم متسلسلة في شكل حلقات مترابطة يمسك بعضها ببعض وينبني بعضها على بعضها الآخر.

يقول الله تعالى: { إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما } (3).

لنتأمل الآية الكريمة وكيف بدأت بتعداد صفات المؤمنين والمؤمنات من عباده الصالحين تعدادا مباشرا يقوم على مراعاة عنصر المساواة بين الجنسين (الرجل والمرأة) ثم كيف انزاح بالتركيب وعدل عن أسلوب التقرير والخطاب المباشر إلى التصوير الكنائي وذلك حين وصل إلى الصفة المتعلقة بالجسد والتي يستحب فيها التكني والستر، فعبر بحفظ الفروج على التزام العفة والتطهر.

والعدول باللفظ عن وضعه الأصلي واضح في هذه العبارة القرآنية؛ وقد بدا أكثر وضوحا في الصورة الكنائية التي وصف بها القرآن الكريم مريم ابنة عمران بوصفها مثلا في العفة والطهارة.

---

(1)سورة القصص آية 25

(2) الامام أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير ،م6،ص214

(3) سورة التحريم آية 5

{ والتي أحصنت فرجها فنفخنا من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين } (1)

قال "البيضاوي": أحصنت فرجها من الحلال والحرام.(2)

ولصاحب البرهان رأي في دلالة لفظة الفرج الواردة في هذه الآية وفي غيرها، وقال:" أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها، وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبةً، فهي ظاهرة الثواب، وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل،وليس المراد غير هذا، فإن القرآن أنزه معنى وألطف إشارة وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، لاسيما والنفخ من روح القدس.."(3) وهذه الالتفاتة الطيبة من صاحب البرهان تكشف عن فهم صحيح للكناية القرآنية التي تأتي للتعبير عن المقصود من أداء المعاني بطريقة مهذبة مجتنبة ما ينبو عن الآذان سماعه متوخية نقل المعنى الكبير في اللفظ القليل. وذلك حين تعجز الحقيقة عن تأدية المعنى في صورته البيانية الموحية.(4)

ومثل هذا الفهم ينطبق على قوله تعالى في حديثه عن المسيح وأمه بأنهما كان من البشر الآدميين:

{ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ،كانا يأكلان الطعام }.(5)

وقد عدل عن الدلالة الحقيقية إلى الدلالة الكنائية في قوله: "يأكلان الطعام"؛ فهو لم يقصد فعل الأكل وإنما قصد ما وراء أكل الطعام وما يشير إليه ذلك الأكل؛ و تلك هي طبيعة الكناية التي تومئ وترمز إلى المعنى بطريقة خفية؛ فالله سبحانه وتعالى أراد "أن يصف السيد المسيح عليه الصلاة والسلام بالصفات البشرية، فعبر عن ذلك بأكل الطعام، وفي هذا التعبير أدب وذوق رفيع ورقة ما بعدها مزيد، وإن أكل الطعام يحتاج إلى هضم، والمهضوم المتبقي يسري في الجسد منه شيء، ويزيد منه شيء، وهذا المتبقي يخرج من سبيله المعلوم."(6) وهذا ما لم يفهم من الدلالة الحقيقية لو لم يحمل على الكناية.

يقول "الزركشي" في تخريج دلالة الكناية من الآية السابقة: " تكنى بأكل الطعام عن البول والغائط لأنهما منه مسببان إذ لا بد للآكل منهما، لكن استقبح في المخاطب ذكر الغائط فكنى به عنه." (7)

---

(1)سورة الانبياء آية 78

(2) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي : تفسير البيضاوي المسمى : أنوار التنزيل و أسرار التأويل،ج2،ص78

(3) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص306

(4)بكري شيخ أمين : التعبير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق لبنان 1980.ط4، ص203

(5)سورة المائدة آية 75

(6) المرجع السابق ص202

(7) الزركشي : البرهان في علوم القرآن،ج2،ص304.

ويبدو تعاطف القرآن الكريم مع المرأة واضحا في أكثر من موضع وهو كثير التلطف في الحديث عنها وفي مخاطبتها وعاتب الرجل عن تصرفاته اتجاهها وأدانه أحيانا في أكثر من موضع، ولعل في الآية الكريمة الآتية ما يكشف عن تلك الإدانة الغاضبة: { وإذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى عن القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب. ألا ساء ما كانوا يحكمون } (1). يقول "العقاد":" فلا يكتفي القرآن من المسلم باجتناب وأد البنات خشية الإملاق أو خشية العار، لأنها درجة لا تعدو أن تكون نجاة من ضراوة الوحشية لا ترقى به إلى درجة الإنسان الأمين على حق الحياة، المؤمن بنصيب كل موجود من لقمة العيش والرعاية، بل يأبى القرآن الكريم للمسلم أن يتبرم بذرية البنات وأن يتلقى ولادتهن بالعبوس والانقباض."(2)

وبدا تعاطف القرآن مع المرأة في استنكاره ما يمارسه الطغاة ضد النساء والأطفال، باعتبارها من المستضعفين، وجاءت الآية لتكني باستحياء النساء عما يمكن أن يلحقهن من أعدائهن من مذلة وهوان. يقول الله تعالى: { وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم } (3)

ومن شدة عناية القرآن بالمرأة في بعدها النفسي والجمالي الاجتماعي أن دعاها في أساليب كنائية لطيفة لتغض من بصرها وتحفظ فرجها وتخفي زينتها وتتلطف في مشيتها؛ وهذه سلسلة من التعابير القرآنية المعدول عنها إلى الكناية رفقا وتلطفا وإغراء للمرأة لكي تحتذي بالنموذج المثالي الذي يليق بوصفها أنثى مؤمنة تطمح أن تضاهي الحور العين فيقول تعالى { وقل للمؤمنات يغضضن من إبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن } (4) كناية عن الاحتجاب والعفة وعدم التبرج كأهل الجاهلية.

---

(1)سورة النحل من الآية 58 إلى 59

(2)عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة دون تاريخ ص54

(3) سورة البقرة آية 49

(4)سورة النور آية 31

و لم تقف عناية القرآن عند المرأة بوصفها زوجة فحسب بل شملت هذه المرأة بنتا وأختا وزوجة وأما. "فتتساوى رعاية الإنسان لأبيه وأمه كما تتساوى رعايته لبنيه وبناته، وقد تخص الأمهات بالتنويه في هذا المقام، فإذا وجب الإحسان للوالدين معا، فالوالدة هي التي تعاني من آلام الحمل والوضع ما لايعانيه الآباء". (1) قال تعالى: { ووصينا الإنسان بوالديه حسنا حملته أمه كرها ووضعته كرها } (2)

كنى بلفظ "كرها" عما تعانيه الحامل من متاعب.قال البيضاوي "حملته أمه كرها ووضعته كرها" ذات كره أو حملا ذا كره، وهو المشقة "(3) .

وإذا كان القرآن الكريم قد ترفق بالمرأة في كناياته ومجازاته وخاطبها في تلطف وأدب جم لكي يحثها على السلوك القويم ويجعلها تنظر إلى نفسها بوصفها أنثى لها طبيعتها الخاصة ولها رسالتها في الحياة، فإنه لم يتوان في التشديد عليها في مواطن الزيغ والانحراف، وعبر عن ذلك في كثير من التصريح، كما عبر عنه في كثير من التلميح الكنائي واللفظ المجازي، فأمر صراحة بجلد الزاني والزانية، وكنى عن طبيعة هذا الانحراف الخلقي بالخبث .قال تعالى: { الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ؛ الزاني لا ينكح إلى زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين } (4).وذكر "الزركشي" في باب الكناية القرآنية قوله تعالى: ' { الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات... } (5)، وقال ' يريد الزناة ' وكذلك في قوله تعالى: { ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن } (6) فإنه كما قال:" كناية عن الزنا وقيل أراد طرح الولد على زوجها من غيره؛ لأن بطنها بين يديها ورجينها وقت الحمل"(7).

---

(1) عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن الكريم ،ص54

(2) سورة الاحقاف آية 15

(3) ناصرالدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي : تفسير البيضاوي المسمى : أنوار التنزيل و أسرار التاويل،ج2،ص394

(4) سورة النور آية 26

(5) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ،ج2،ص306

(6) سورة الممتحنة آية 12

(7)المرجع السابق ،ج2،ص306

وهكذا تسلك الكناية القرآنية بوصفها أسلوبا تصويريا مسلك التشديد في الخطاب الأنثوي للزجرعما لا يليق بالمرأة بوصفها كائن بشري لها حرمتها ولها حدودها التي لا ينبغي أن تتجاوزها فتخرج عن طبيعتها الأنثوية. وتبرز لنا الكناية امرأة أبي لهب "حمالة الحطب" للتنبيه على مصيرها. فهي " نمامة ومصيرها إلى أن تكون حطبا لجهنم"(1).وهذا هو المدلول الذي عبرت عنه الكناية في تصوير هذه المرأة.

ولا تفقد الكناية عن الأنثى في الخطاب القرآني الذي يتناول علاقة الرجل بالمرأة وظيفتها البيانية وجمالها وإيحائها حتى وهي في أقصى تشديدها .كما في قوله تعالى: { فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله. واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا } (2).

التشبيه:

ويبقى في الأخير إشارة إلى بعض الآيات القرآنية التي صورت نساء الآخرة معتمدة أسلوب التشبيه بدلا من الكناية وهذا لسر بياني معجز حيث إنه لما كان القرآن يتحدث عن نساء الدنيا كان يستعمل الكنايات وأنواع المجاز لأنه إنما يتحدث إلى الناس في أمور حياتهم ويناقش واقعهم المعيش في مختلف أبعاده الدينية والدنيوية ولكنه لما صار يتحدث عن عالم الآخرة لجأ إلى أسلوب التشبيه ليقرب صورة نساء أهل الجنة من عقول العرب فاستعمل تشبيهاتهم التي ألفوها ومنها تشبيه المرأة بالبيضة والياقوتة والمرجانة والصدفه وغيرها.

ولا نجد ما نختم به هذه القراءة أفضل من هذا الحوار الذي دار بين أم سلمة والرسول صلعم حول المرأة،وهو حوار يشتمل على ذكر الآيات القرآنية التي تتوسل التشبيه في تصوير المرأة مجسدة في المرأة /المثال من نساء أهل الجنة.

---

(1) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، ج2،ص308

(2) سورة النساء آية 34

" قالت أم سلمة لرسول الله صلعم:

أخبرني يا رسول الله عن قول الحق عز وجل { وحور عين } (1)

فقال عليه الصلاة والسلام:

"حور" معناها بيض و"عين"، أي ضخام شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر...

قالت أم سلمة:

أخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى: { كأنهن الياقوت والمرجان } (2)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

صفاؤهن كصفاء الدر أي اللؤلؤ الذي في الأصداف الذي لا تلمسه الأيدي...

وقالت أم سلمة:

يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى: { فيهن خيرات حسان } (3)

فقال رسول الله صلعم:

خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

فقالت أم سلمة:

فأخبرني يا نبي الله عن قوله تعالى:

{ كأنهن بيض مكنون }"(4)

قال رسول الله صلعم:

رقتهن كرقة الجلد في داخل البيضة مما يلي القشر.(5)

قالت أم سلمة:

اخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى: { عرب أترابا } (6)

قال رسول الله صلعم:

---

(1) سورة الواقعة آية 22

(2) سورة الرحمن آية 58

(3) سورة الرحمن آية 70

(4) سورة الصافات : آية 49

(5) محمد متولي الشعراوي : المرأة في القرآن ، مكتبة الشعراوي الاسلامية ، القاهرة ، دون تاريخ ص 74.

(6) سورة الواقعة، آية 37

هن اللاتي قبضن في الدنيا عجائز رمصا شمطا، خلقهن الله يوم القيامة بعد الكبر فجعلهن عذارى... "عرب" متعشقات محببات، "أترابا" على ميلاد واحد أي في سن واحدة.

فقالت أم سلمة: يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام: بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين لفضل الظهارة على البطانة.(1).

(1) محمد متولي الشعراوي : المرأة في القرآن ، ص75.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- عصمت الدين كركر: حرم الهيئة، الشركة التونسية للتوزيع، 1985.
- عبد القاهر الجرجاني :أسرار البلاغة ، تحقيق محمد الفاضلي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت، 2001م.
- الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (4 أجزاء)، ط2، المكتب العصرية بيروت، 1972.
- ناصرالدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمى : أنوار التنزيل و أسرار التأويل (مجلدان)، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
- بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن الكريم، ، ط4، دار الشروق، لبنان، 1980.
- الإمام أبو الفرج عبد الرحمان ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق. 9 مجلدات دون تاريخ.
- الدكتور عبد العزيز عتيق : – علم البيان – في البلاغة العربية ، ط1،دار النهضة العربية، بيروت، 1974.
- ابن منظور: لسان العرب، 15 مجلد، دار صادر بيروت، دون تاريخ.
- د. محمد حسين الصغير: مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، (كتاب مصور الكترونيا).
- عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن الكريم ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، دون تاريخ.
- محمد متولي شعراوي :المرأة في القرآن، ، مكتبة الشعراوي الاسلامية، القاهرة، دون تاريخ.
- شبكة الأنترنت–مواقع مختلفة –